

## دراسة سور القرآن وآيه شكلا ومحتوى (\*)

بقلم : ريجيس بلاشير

تعريب : محمد المختار العبيدي

لَنْ نُصَدَّرَ « تَرْجَمَةَ الْقُرْآنِ » هَذِهِ بِتَرْجُمَةٍ وَلَوْ قَصِيرَةٍ  
لِرَسُولِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدٍ [ص] [\*]. فَلَیَرْجِعِ الْقَارِئُ فِي هَذِهِ  
النَّقْطَةِ إِلَى الْمُؤَلَّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي كِتَابِنَا « مَدْخَلٌ » إِلَى  
الْقُرْآنِ » .

إِنَّ كِتَابَ الْإِسْلَامِ الْمُقَدَّسَ الْمُسَمَّى قُرْآنًا (وَالَّذِي جَعَلْنَا  
مِنْهُ Coran ) يَحْتَوِي كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ عَلَى مَا تَلَقَّاهُ مُحَمَّدٌ  
مِنْ نُصُوصٍ مُنْزَلَةٍ بِمَكَّةَ أَوَّلًا ثُمَّ بِالْمَدِينَةِ فِيمَا بَيْنَ سَنَتَيْ

(\*) لقد لفت انتباهنا ونحن نقرأ ترجمة ريجيس بلاشير للقرآن :

Le Coran traduit de l'arabe par Régis Blachère éd. G.P. Mais on neuve  
et Larose Paris 1966.

المقدمة التي صدر بها هذه الترجمة وقد وجدناها على قصرها دراسة علمية مركزة اهتم فيها  
صاحبها بالقرآن شكلا ومحتوى اهتماما قل أن نجده عند غيره من الباحثين المحدثين . ومما  
زاد هذه الدراسة قيمة اعتماد صاحبها على أربعة مفسرين يمثلون أهم تيارات التفسير وهم  
الطبري ( ت 311/هـ 923م ) والبيضاوي ( ت 691/هـ 1291م ) والرازي ( ت 609/هـ 1209م )  
والنسفي ( ت 710/هـ 1310م ) . وإن عنوان الدراسة : « دراسة سور القرآن وآيه شكلا  
ومحتوى » هو من عندنا .

(\*) كل الألفاظ والتراكيب الواردة في النص الأصلي بين معقفين [ ] هي من عندنا .  
وكذلك جميع التفسيرات والتعليق بالهوامش هي من عندنا .

612 تَقْرِيْبًا و632 مِنْ التَّارِيْخِ الْمَسِيْحِيّ . وَلَمْ تُجْمَعْ هَذِهِ «الرَّسَالَاتُ» (1) بِصُورَةٍ نِهَائِيَّةٍ فِي كِتَابٍ إِلَّا بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ بِالْمَدِيْنَةِ سَنَةَ 632 م . وَلَمْ تَبْقَ هَذِهِ النُّصُوصُ الْيَوْمَ خَاضِعَةً فِي النُّسْخَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْأَكْثَرِ تَدَاوُلًا (2) لِتَرْتِيْبِ الْوَحْيِ الزَّمَنِيِّ وَإِنَّمَا لَطُولُ السُّورِ الْمُتَنَاقِصِ . فَتَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِذَنْ - إِلَى حَدِّ مَا - إِنَّنَا نَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْيَوْمَ عَلَى عَكْسِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ تَرْتِيْبٍ . ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوصَ الْأُولَى - وَهِيَ أَطْوَلُ النُّصُوصِ - مُكَوَّنَةٌ بِصِفَةِ عَامَّةٍ مِنْ الْوَحْيِ الْمُنْزَلِ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي آخِرِ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دَعْوَتِهِ .

وَلِنَفْهَمَ تَارِيْخِيًّا كِتَابَ الْمُسْلِمِينَ الْمُقَدَّسَ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَهْوِيْنَا إِرَادَةُ قِرَاءَتِهِ بِالرَّجُوعِ إِلَى الْفَتَرَاتِ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا الْوَحْيُ الَّذِي مِنْهُ يَتَكَوَّنُ الْقُرْآنُ .

وَلِنُذَكِّرَ - إِعَانَةً لِلْقَارِئِ - بِأَنَّ السُّورَ الْقُرْآنِيَّةَ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعِ مَجْمُوعَاتٍ تُوَافِقُ فَتَرَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ الْأَرْبَعِ الْمُتَلَاْحِقَةِ .

وَقَدْ جَعَلْنَا - مُسْتَنِدِينَ إِلَى الْبَرَاهِينِ - ضِمْنَ نُّصُوصِ فِتْرَةِ [الدَّعْوَةِ] الْأُولَى السُّورَ التَّالِيَّةَ :

(1) ترجمنا لفظة messages بـ «رسالات» لأن اللفظة الفرنسية هي نفسها ترجمة واضحة لللفظة رسالات الواردة في القرآن في قوله تعالى : « قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ... » الأعراف/61 - 62 . ووردت في صيغة المفرد في قوله : « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغكم رسالة ربي ونصحت لكم ... » الأعراف/79 .

(2) وردت في النص الفرنسي عبارة Vulgate coranique ومعلوم أن لفظة Vulgate وحدها تعني ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية واستعملها بلاشير هنا في معناها اللغوي الصحيح Vulgare أي نشر . لذلك ترجمناها بالنسخة القرآنية الأكثر إنتشارا أو تداولاً . ويرى بلاشير أن النسخة الأكثر تداولاً هي النسخة المصرية المنشورة بالقاهرة بتاريخ 1342هـ/1923 م . (أنظر الترجمة ص 7) .

العلق (96 الآيات 1-5) المدثر (74 الآيات 1-7) قريش (106) الضحى (93) الانشراح (94) العصر (103) الشمس (91) الماعون (107) الطارق (86) التين (95) الزلزلة (99) القارعة (101) العاديات (100) الليل (92) الانفطار (82) الأعلى (87) عبس (80) التكوير (81) الانشقاق (84) النازعات (79) الغاشية (88) الطور (52) الواقعة (56) الحاقة (69) المرسلات (77) النبأ (78) القيامة (75) الرحمن (55) القدر (97) النجم (53) التكاثر (102) العلق (96) الايات 6-19 المعارج (70) المزمل (73) الإنسان (76) المطففون (83) المدثر (74) الآيات 8-55 المسد (111) الكوثر (108) الهمزة (104) البلد (90) الفيل (105) الفجر (89) البروج (85) الإخلاص (112) الكافرون (109) الفاتحة (1) الفلق (113) الناس (114) .

إِنَّ مَوْضُوعَ مَجْمُوعَةِ أُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورِ الْجَوْهَرِيِّ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى التَّطَهُّرِ وَالصَّدَقَةِ وَالْمُتَابَعَةِ .

وَتَضُمُّ مَجْمُوعَةُ ثَانِيَةِ سُورًا ذَاتَ مُحْتَوًى أَكْثَرَ غِنًى وَأَشَدَّ تَنَوُّعًا . وَتَلَمَّسُ فِيهَا أَحْيَانًا الدَّلِيلَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ مَنْ قَبْلُ اتِسْنَاغُورُ (3) وَهُوَ نَشْأَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ كَبَدَلِيلٍ عَلَى أَنْ بَعَثَ الْأَمْوَاتَ [لَا رَيْبَ فِيهِ] . فَكَيْفَ يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ مُصِيبَةِ الْمَوْتِ مَا خَلَقَهُ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ؟ وَلَا يُمَثِّلُ هَذَا الْمَوْضُوعُ رُكْنَ الدَّعْوَةِ الْأَسَاسِيِّ وَقْتَ ظُهُورِهَا . فَالْمَوْضُوعُ السَّائِدُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ فِيهِ أَقْدَمُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ هُوَ الْمَسَائِلُ الْأَخْرَوِيَّةُ . وَهَذَا مَا شَعَّرَ بِهِ تُوْرَ أَنْدَرِي (4) شَعْبُورًا عَمِيقًا .

(3) آتسناغور Athénagore يوناني من مواليد القرن الثاني بعد الميلاد . ألف كتابا ضخما عن « بعث الأموات » أنظر في شأنه : Grand Larousse Encyclopédique. T. 1, p. 681 - Librairie Larousse. Paris 1960.

(4) تور أندري Tor Andrae (1885 - 1947) سويدي الأصل كان عالما باللاهوت وأسقفًا . درس بجامعة « إيسلا » . أنظر المرجع السابق ص 390 .

وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَهِيَ الرُّكْنُ الْأَسَاسِيُّ  
فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَحِنْ الْحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ بَعْدَ . وَعَلَى الْعَكْسِ  
مِنْ ذَلِكَ فَالَّذِي يَرِدُ ذِكْرُهُ بِاسْتِمْرَارٍ كَمَسْأَلَةِ مُلْحَةٍ تَجَلَّتْ  
فِي دِقَّةِ التَّفْصِيلِ تَجَلِّيَهَا فِي قُوَّةِ الذِّكْرِ هُوَ التَّذْكِيرُ  
بِزَوَالِ الدُّنْيَا وَ[حَتْمِيَّةِ] يَوْمِ الْحِسَابِ . فَلِلَّهِ الْعَدْلُ كُلُّهُ  
يَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ إِنْ خَيْرًا فَجَنَّتْ عَدْنٌ وَإِنْ شَرًّا  
فَعَذَابٌ سَقَرٌ . وَالسُّورُ - كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي لَوْحَةِ فَنِيَّةٍ  
مُزْدَوِجَةٍ - مُتَجَاوِرَةٌ يُكْمَلُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتُظْهِرُ قِيَمَتَهَا  
بِالتَّقَابُلِ . أَمَّا الدَّعْوَةُ الْجَدِيدَةُ كَمَا تَظْهَرُ فِي سُورِ هَذِهِ  
الْمَجْمُوعَةِ وَدُونَ أَنْ تُقَاوِمَ الْوَتْنِيَّةَ مُبَاشَرَةً هِيَ تُؤَثِّرُ عَنْ  
طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ فَقَطْ .

وَتَظْهَرُ مِنْ جَدِيدٍ فِي مَجْمُوعَةِ ثَالِثَةِ مَوَاضِيْعِ السُّورِ  
السَّابِقَةِ مَعَ تَسَرُّبِ عُنْصُرٍ جَدِيدٍ إِلَيْهَا يَدْفَعُنَا إِلَى الشُّعُورِ  
بِأَنَّ تَطَوُّرًا قَدْ جَدَّ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ (ص) . [فَنَجِدُ] رُدُودًا  
عَنِيفَةً شَبَّهَ مُبَاشَرَةً فِي شَكْلِ إشاراتٍ خَاطِفَةٍ عَلَى  
الْمُعَارِضِينَ . ذَلِكَ أَنَّ طَوْرَ الْمُصَالَحَةِ الصَّرْفَةِ فِي هَذِهِ السُّورِ  
قَدْ وَلَّى وَانْقَضَى وَبَدَأَ الصَّرَاعُ مَعَ الْوَتْنِيَّةِ الْمُعَادِيَةِ [لِلْإِسْلَامِ]  
كَمَا يَنْضَافُ إِلَى تِلْكَ الرَّدُودِ مَوْضُوعٌ آخَرُ هُوَ التَّذْكِيرُ السَّرِيعُ  
بِالْعِقَابِ الَّذِي سَلَّطَهُ اللَّهُ فِي الْمَاضِي فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى  
الْأَقْوَامِ الَّذِينَ صَمُّوا آذَانَهُمْ عَنْ نِدَاءِ الْأَنْبِيَاءِ . وَالْحُجَّةُ فِي  
هَذَا الصَّدَدِ قَوِيَّةٌ : فَنَجِدُ تَذْكِيرًا بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ وَتَعَلُّفِهِ  
بِنُصْرَةِ رُسُلِهِ وَتَهْدِيدِهِ الْكَافِرِينَ [بِزَوَالِ] مَا هُوَ عِنْدَهُمْ خَيْرٌ  
[مِنْ] الْآخِرَةِ] وَأَبْقَى ، نَعِيمَ هَذِهِ الدُّنْيَا وَخَيْرَاتِهَا .

وَتَجَمَّعُ لَدَيْنَا فِي مَجْمُوعَةٍ رَابِعَةٍ خَمْسُ سُورٍ فُصِّلَ فِيهَا الْقَوْلُ تَفْصِيلاً فَبَتَّتْ بِفَضْلِ مُحْتَوَاهَا فِيمَا لَمْ تَبْتَ فِيهِ سَابِقَاتُهَا . وَهِيَ نُصُوصٌ قَصِيْرَةٌ جِدّاً تَدْعُو إِلَى الْعَقِيْدَةِ وَإِلَى التَّوَسُّلِ [إِلَى اللَّهِ] بِالتَّسْبِيحِ . فَإِلَى أَيْ عَهْدٍ يَرْجِعُ تَارِيخُ هَذِهِ النُّصُوصِ ؟ لَيْسَ فِي إِمْكَانِنَا إِثْبَاتُ ذَلِكَ بِدَقَّةٍ : ثَلَاثَةٌ مِنْهَا تَبْدُو قَدِيْمَةً وَيَبْدُو عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ نَصَانِ مُتَأَخَّرَيْنِ . أَمَّا أَسْلُوبُ سُورِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ فَعَلَى الْعُمُومِ مُتَمَيِّزٌ إِلَى أَبْعَدِ حَدٍّ . فَالآيَاتُ وَهِيَ غَالِبًا قَصِيْرَةٌ كَثِيْرًا مَا تُكُونُ مَجْمُوعَاتُ ذَاتِ فَوَاصِلِ (5) مُوَحَّدَةٌ مَجْهُورَةٌ مَقَاطِعُهَا طَوِيلَةٌ مُنْغَلِقَةٌ . وَالآيَاتُ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ مُوجَزَةٌ وَدَوْمًا قَوِيَّةٌ بَلِيْغَةٌ يَتَخَلَّلُهَا الْقَسَمُ وَالْإِسْتِفْهَامُ الصَّارِمُ . وَتَظْهَرُ فِي كَثِيْرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ صِيْغٌ وَتَرَكَيبٌ جَاهِزَةٌ تُضْفِي عَلَى النَّصِّ نَعَمًا مُوَحَّدًا يُؤَثِّرُ فِي السَّمْعِ أَيْمًا تَأْثِيْرًا . وَهَذِهِ النُّصُوصُ الْأَوَّلَى تُسَاعِدُ عَلَى تَصَوُّرِ التَّأْثِيْرِ الْعَمِيْقِ [الَّذِي تُحْدِثُهُ فِي الْمُصْغِي] وَهُوَ تَأْثِيْرٌ نَاتِجٌ عَنْ دَعْوَةٍ شَكَّلَهَا وَمُحْتَوَاهَا مُتَسَاغِمَانِ شَدِيدَ التَّنَاسُغِ .

وَقَدْ جَعَلْنَا - مُسْتَنِدِينَ إِلَى الْبَرَاهِيْنِ - ضِمْنَ نُّصُوصِ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الرَّسَالَةِ السُّورِ الثَّالِيَةِ :

(5) ترجمنا rime بـ «فاصلة» لأننا لا نرى في القرآن قافية ولا سجعاً . و« تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام . وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ولم يسموها أسجاعاً . فأما مناسبة فواصل فلقوله تعالى « كتاب فصلت آياته » وأما تجنب أسجاع فلأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطير .... قال الرماني في كتاب إعجاز القرآن وبني عليه أن الفواصل بلاغة والسجع عيب وتبعه القاضي الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن ونقل عن الأشعرية إمتناع كون في القرآن سجعاً » محمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن المجلد الأول ص 54 دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ .

الذاريات (51) القمر (54) القلم أو نون (68) الصافات (37) نوح (71)  
الدخان (44) ق (50) طه (20) الشعراء (26) الحجر (15) مريم (19) ص (38)  
يس (36) الزخرف (43) الجن (72) الملك (67) المؤمنون (23) الأنبياء (21)  
الفرقان (25) النمل (27) الكهف (18) .

لَيْسَ لَدَيْنَا الْبَتَّةَ تَفَاصِيلُ تَارِيخِيَّةٌ بِحَقِّ عَنِ الظُّرُوفِ  
التي صَاحَبَتْ تَبْلِيغَ هَذِهِ الرِّسَالَاتِ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْمُعْطِيَّاتِ  
التَّقْلِيدِيَّةِ - التي مِنْهَا خَاصَّةً الشَّكْلُ الذي وَرَدَتْ فِيهِ  
النُّصُوصُ - تَسْمَحُ لَنَا بِاسْتِشْفَافِ الْوَسْطِ الذي كَانَ فِيهِ الرَّسُولُ  
يَتَحَرَّكُ . فَالْمُعَارَضَةُ وَقَدْ أُمْسَتْ عِدَائِيَّةً أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ  
لشُعُورِهَا بِأَنَّهَا مُهْدَدَةٌ بِلَا انْقِطَاعٍ فِي هَيْمَنَتِهَا الدِّينِيَّةِ  
وَمَصَالِحِهَا الْمَادِيَّةِ لَمْ تَعُدْ تَقْنَعُ بِالتَّشْكِيكِ وَلَا بِالسُّخْرِيَّةِ  
فَأَصْبَحَتْ تَعْتَدِي وَتُحَاجُّ وَتُشِيرُ الْجِدَالَ وَتُذَيِّعُ الْهُزْءَ وَالتَّهْدِيدَ .

وَتَفَاقَمَتِ الْإِخْتِلَافَاتُ بَيْنَ مَذَاهِبِ الْمُشْرِكِينَ وَالْإِسْلَامِ  
الْقَتِي . فَاتَّضَحَتْ النِّقَاطُ الْجَوْهَرِيَّةُ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِهَا الدَّعْوَةُ  
الْجَدِيدَةُ وَاتَّضَحَ تَبَعًا لِذَلِكَ سَبَبُ انْتِقَالِ بَعْضِ الْمَوَاضِيَعِ  
الْقُرْآنِيَّةِ مِنْ دَرَجَةٍ بِالْغَةِ الْأَهْمِيَّةِ إِلَى أُخْرَى ثَانَوِيَّةٍ .

فَمَبْدَأُ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ الذي ذَكَرْتَهُ بَعْضُ سُورِ نِهَايَةِ  
الْفِتْرَةِ السَّابِقَةِ غَدَاً مِنْ هُنَا فَصَاعِدًا مَوْضُوعَ الدَّعْوَةِ الْأَسَاسِيَّةِ  
وَتَضَاعَفَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ التَّعْزِيزُ السَّاخِرُ بِالْإِلَهِيَّةِ الْمَرْعُومَةِ .  
وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ جَاءَ وَصْفُ يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ  
وَالْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ أَقْصَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَأَقْلَّ إِثَارَةً وَلَا  
يَتَنَوَّعُ إِلَّا قَلِيلاً . وَيُذَكِّرُ الْإِنْسَانَ بِوَاسِطَةِ إِشَارَاتِ خَاطِفَةِ  
بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ . فَالْمَوْضُوعُ الْغَالِبُ الْآنَ مُكُونٌ مِمَّا يُمَكِّنُ

أَنْ نُسَمِّيَهُ [يَدْعَاءُ] الرَّسُولِ النَّاسَ إِلَى بُرْهَانِ رَبِّهِ . فَكَانَ  
 كَمَنْ يُخَاطَبُ الصُّمُّ الْبُكْمَ . وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْبُرْهَانَ قَدْ ظَهَرَ  
 فِي بَعْضِ النُّصُوصِ الْمُتَقَدِّمَةِ كَمَا سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا . لَكِنْ لَمْ  
 يَكُنِ الْأَمْرُ هُنَاكَ إِلَّا إِشَارَاتٍ عَامَّةً خَالِيَةً مِنْ كُلِّ زُخْرُفٍ .  
 وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ يَكْثُرُ الْوَصْفُ فِي سُورِ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ  
 وَيَزْخَرُ بِتَفَاصِيلِ أَكْثَرِ قُوَّةٍ وَأَشَدِّ قُدْرَةٍ عَلَى بَعَثِ الذَّعِيرِ  
 فِي نَفُوسِ الْمُرْتَابِسِينَ . فَوَجَبَتِ الْمُقَارَنَةُ . فَمِثْلَمَا عَجَزَ  
 مُحَمَّدٌ (ص) عَنْ زَعَزَعَةِ أَرْكَانِ مُنَاوِيئِهِ رَفِضَتْ كَذَلِكَ  
 أَقْوَامُ عَادٍ وَثَمُودَ وَنُوحَ وَرَفِضَ فِرْعَوْنَ فِي مُلْكِهِ الشَّامِخِ  
 الْاسْتِمَاعَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ . وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 عَاقَبَهُمْ جَزَاءً بِمَا كَفَرُوا وَدَمَّرَهُمْ تَدْمِيرًا . وَسَيَأْتِي دَوْرُ  
 كُفَّارِ مَكَّةَ الْقُرْبَى الْمُقَدَّسَةِ . وَقَدْ جَرَّ التَّدْكِيرُ فِي هَذِهِ  
 السُّورِ بِالنُّبُوءَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي أُعْرِضَ عَنْهَا الْمُشْرِكُونَ إِلَى  
 [تَوَارِدٍ] قِصَصٍ مُتَجَاوِرَةٍ تَتَشَابَهُ فِي مَظْهَرِهَا الْعَامِّ وَغَالِبًا  
 فِي أَسْلُوبِهَا . وَيُظْهَرُ جَانِبٌ آخَرُ هَامٍ يَتَعَلَّقُ بِدَوْرِ الرَّسُولِ  
 مُحَمَّدٍ . فَمُحَمَّدٌ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا يَقُومُ بِاسْتِمْرَارِ دَوْرِ  
 «النَّذِيرِ» الَّذِي كَلَّفَهُ رَبُّهُ بِتَحْذِيرِ الْمُشْرِكِينَ قُرْبَ السَّاعَةِ .  
 وَهَكَذَا يُوَاصِلُ الرَّسُولُ خَطَّ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَهُوَ  
 بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُكْرَهَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى شَيْءٍ  
 إِلَّا أَنْ يُنِيرَ أَمَامَهُمُ السَّبِيلَ وَيُدْكَرَهُمْ بِمَالِ الْمُشْرِكِينَ  
 الْأَلِيمِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْغَابِرَةِ .

تُمَثِّلُ سُورُ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مَجْمُوعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ الْعَنَاصِرِ .  
 وَبَعْضُهَا يَكْتَسِي صِبْغَةً مَوْعِظَةً ذَاتَ أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ : الْقِسْمُ  
 الْأَوَّلُ وَهُوَ يَخْتَلِفُ طَوْلًا وَقِصْرًا يَعْزِضُ مَبَادِيءَ عَقِيدَةٍ أَوْ

يَحْتَوِي عَلَى تَهْدِيدٍ أَوْ نِدَاءٍ لِلْمُشْرِكِينَ . الْقِسْمُ الثَّانِي  
— وَغَالِبًا مَا يُفَصِّلُ فِيهِ الْقَوْلُ تَفْصِيلًا كَمَا هُوَ الشَّانُ  
فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (26) — يُوَضِّحُ بِأَمْثِلَةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الْمَاضِي  
الْمَصِيرَ الَّذِي يَنْتَظِرُ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَنْتَهِي  
الْكُلَّ بِخَاتِمَةٍ تَتَنَاوَلُ مِنْ جَدِيدِ الْمَوْضُوعِ الْأَوَّلِ .

وَيَخْتَلِفُ أَسْلُوبُ هَذِهِ السُّورِ عَنْ أَسْلُوبِ النُّصُوصِ الْمُتَقَدِّمَةِ  
اخْتِلَافًا بَيِّنًا . فَاللَّهْجَةُ الْحَادَّةُ السَّرِيعَةُ قَدْ هَدَّأَتْ ، وَالْآيَاتُ  
مَالَتْ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الطُّوْلِ دُونَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ إِشْعَارِ [الْقَارِئِ]  
بِأَنَّهَا وَحَدَاتٌ يُقَاعِيَّةٌ . وَأَصْبَحَتْ الْفَوَاصِلُ أَكْثَرَ رَتَابَةً  
وَانْحَصَرَتْ فِي بَعْضِ الْمَجْمُوعَاتِ الَّتِي يَطْفِئُ عَلَى أَوَاخِرِهَا  
« يَنْ » و« وَنْ » . وَغَابَتْ بَعْضُ التَّرَاكِيِبِ الْجَوْهَرِيَّةِ كَمَا غَابَتْ  
كَذَلِكَ بَعْضُ التَّرَاكِيِبِ الْمُعَادَةِ الَّتِي تَحْفِلُ بِهَا نُصُوصُ  
الْفِتْرَةِ السَّابِقَةِ وَعَوَّضَتْهَا تَرَكَيبُ أُخْرَى مِنْ قَبِيلِ « الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (6) وَيُسَمِّي اللَّهُ نَفْسَهُ عَادَةً :  
« الرَّحِيمُ » فِي صُلْبِ السُّورِ نَفْسِهَا . وَأَخِيرًا تَظْهَرُ فِي أَوَاخِرِ  
الْآيَاتِ بِصُورَةٍ مَأْلُوفَةٍ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ أَسْمَاءُ لِلَّهِ مُزْدَوِجَةٌ مِنْ  
قَبِيلِ « الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » و« الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » وَيُمْكِنُ أَنْ  
نَرَى فِي هَذَا تَطَوُّرًا لِلتَّفَكِيرِ الدِّينِيِّ الَّذِي هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى  
التَّذْكِيرِ بِبَعْضِ مَظَاهِيرِ الْأُلُوْهِيَّةِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا  
تُعَدُّ . وَلَعَلَّ هَذَا التَّطَوُّرَ نَاتِجٌ أَيْضًا عَمَّا تَعَوَّدَ عَلَيْهِ [النَّاسُ]  
مِنْ نِلَاوَةِ جَمَاعِيَّةٍ سَاعَدَ عَلَيْهَا تَكَرُّارُ هَذِهِ الْمَوَاضِيْعِ  
ذَاتِ الْجَرَسِ الْقَوِيِّ الْمُتَنَوِّعِ .

(6) وردت هذه العبارة في آيات متعددة منها : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » البقرة/25 . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات » النساء/57 .



وَقَدْ جَعَلْنَا مُسْتَنِدِينَ إِلَى الْبَرَاهِينِ ضِمْنَ نُصُوصِ الْفَتْرَةِ  
الثَّالِثَةِ مِنَ الرِّسَالَةِ السُّورِ الثَّالِيَةِ :

السجدة (32) فصلت (41) الجاثية (45) الإسراء (17) النحل (16)  
الروم (30) هود (11) إبراهيم (14) يوسف (12) غافر (40) القصص (28)  
الزمر (39) العنكبوت (29) لقمان (31) الشورى (42) يونس (10) سبأ (34)  
فاطر أو الملائكة (35) الأعراف (7) الأحقاف (46) الانعام (6) الرعد (13) .

هذه السُّورُ الاثنتان والعشرون امتداداً لسُورِ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ  
وَتَشْكُلُ نَقْطَةً تَحْوِلُ مَعَ النُّصُوصِ الْمُنَزَّلَةِ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ  
سَنَةِ 622م . وَهِيَ تَحْتَوِي عَلَى إِضَافَاتٍ عَدِيدَةٍ هَامَّةٍ مِنْ هَذِهِ  
الْفَتْرَةِ الْآخِيرَةِ . وَتَجِدُ فِيهَا تَقْرِيباً بِاسْتِمْرَارٍ شَكْلُ النُّصُوصِ  
الْوَعْظِيَّةِ الثَّلَاثِيَّةِ التَّفْسِيْمِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي عَدَدٍ عَدِيدٍ  
مِنْ سُورِ الْفَتْرَةِ الثَّانِيَةِ . وَيُوسَّعُ مُحَمَّدٌ (ص) فِي هَذِهِ  
الْفَتْرَةِ دَائِرَةَ دَعْوَتِهِ . فَيُحَاوِلُ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي أَقْوَامِ « الطَّائِفِ »  
وَيُحَاوِلُ ذَلِكَ بِمَكَّةَ نَفْسِهَا مَعَ الْبَدْوِ الْعَابِرِينَ . وَمَا تَفَتَّ أَنْ  
تَتِمَّتَنَ الصَّلَاةُ مَعَ حَدِيثِي الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِي  
الْمَدِينَةِ . وَتَحْمِلُ اللُّغَةُ الْقُرْآنِيَّةُ أَثَرَ تَوْسُّعِ الدَّعْوَةِ الْمَذْكُورِ  
أَنْفَاقاً . وَتَجِدُ فِي سُورِ نِهَايَةِ الْفَتْرَةِ الثَّالِثَةِ عِبَارَةً ذَاتَ  
مَغْزًى ، فَيَقُولُ الْقُرْآنُ : « يَا قَوْمِ » ويقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ »  
فَلَمْ تَعُدِ الدَّعْوَةُ مُوجَّهَةً إِلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ فَحَسَبُ وَلَكِنْ  
إِلَى جَمِيعِ الَّذِينَ لَمْ تُدْرِكْهُمْ بَعْدُ وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا مُحَمَّدٌ  
يُعَوِّلُ عَلَيْهِمْ . وَإِنْ عَوْدَةَ الْحَدِيثِ فِي هَذِهِ السُّورِ عَنْ بُرْهَانِ  
الرُّسُولِ الْمُتَنَادِي فِي الْخَلَاءِ الصَّفِّصَفِ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَوَافِقَ  
تَوْسُّعَ الدَّعَايَةِ نَفْسَهُ .

أَلَيْسَ - فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ - الْقَادِرُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ عَلَى هِدَايَةِ الْمُرْتَابِينَ وَالْأَمْبَالِينَ بِأُولَى مِنْ أَيْ كَانَ بَزَعَزَعَةً اعْتِقَادَ هَؤُلَاءِ فِي آلِهَتِهِمْ الْمَرْعُومَةِ وَإِبَانَةَ فِدَاحَةِ أَخْطَاءِ حَسَابَاتِهِمْ لِأَنَاسٍ أَغْرَنَهُمْ كَثِيرًا أَبَاطِيلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؟ وَقَدْ اسْتَوْجَبَ هَذَا الْبُرْهَانَ خَاتِمَةً تَكُونُ نَذِيرًا بِالْوَاجِبِ الدِّينِيِّ وَهُوَ الْإِسْتِكْنَانَةُ إِلَى « رَبِّ الْعَالَمِينَ » الْأَحَدِ الصَّمَدِ . وَمِنْ ثَمَّ نَشُوءُ سُورِ ثَلَاثِيَةِ التَّقْسِيمِ تُسَاعِدُ تِلَاوَتَهَا تِلَاوَةً جَمَاعِيَّةً عَلَى اعْتِنَاقِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْإِسْلَامَ .

وَتَعُودُ إِلَى النُّصُوصِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا سُورُ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مَوَاضِيْعُ الْفَتْرَةِ السَّابِقَةِ وَهِيَ وَحْدَانِيَّةُ اللَّهِ وَحِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ . أَمَّا تَصْوِيرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَقَدْ قُلَّ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَعِنْدَمَا نَعْتَرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ نَرَاهُ مُحْصُورًا فِي إِشَارَاتٍ عَامَّةٍ تَزِيدُ اقْتِضَابًا كُلَّمَا تَمَادَيْنَا فِي الْقِرَاءَةِ . وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تُحَافِظُ الْفَقَرَاتُ الْقَصَصِيَّةُ الَّتِي فِيهَا حَدِيثٌ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَى كُلِّ الْقِيَمَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا فِي الْفَتْرَةِ السَّابِقَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْمِلُ تَفْصِيلَ جَدِيدَةٍ إِلَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِبْرَاهِيمَ فَيُقَدِّمُ أَحْيَانًا عَلَى أَنَّهُ بَانِي الْحَنِيفِيَّةِ . وَلَيْسَ هَذَا الْمَوْضُوعُ إِلَّا نَتِيجَةٌ لِإِقْحَامِ بَعْضِ الْآيَاتِ الْقَصِيرَةِ الْمُنَزَّلَةِ بِالْمَدِينَةِ فِي صُلُبِ النُّصُوصِ . كَمَا يَنْبَغِي التَّنْبِيْهُ إِلَى ظُهُورِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا مِنْ قَبْلُ مِثْلُ يُوسُفَ وَشُعَيْبٍ نَبِيِّ مَدْيَنَ . وَأَخِيرًا غَالِبًا مَا تَظْهَرُ فِي النَّصِّ مَوَاضِيْعُ لَمْ يُفْصَلْ فِيهَا الْقَوْلُ وَلَكِنَّهَا عَلَى غَايَةِ مِنْ الْأَهْمِيَّةِ نَذِيرٌ مِنْ ذَلِكَ الْجِدَّةِ الَّتِي يُمَثِّلُهَا تَنْزِيلُ كِتَابِ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِلِسَانٍ عِبْرِيٍّ

وَدَوَّرَ «النَّذِير» الَّذِي آلَ إِلَى مُحَمَّدٍ ، كَمَا نَذَرَ كُرْسُوعَ تَقَلُّبِ  
الْإِنْسَانَ الْجَزُوعَ إِلَى اللَّهِ إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ ، الْأَشَدُّ لُجُوءًا إِلَى إِلَهِيهِ  
الْمَرْغُومَةِ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ .

وَفِي هَذِهِ النُّصُوصِ تَأَكَّدَ صَرَاحَةً — مِثْلَمَا هُوَ الشَّانُ فِي  
النُّصُوصِ الْمُتَقَدِّمَةِ — الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ . فَاللَّهُ «يَهْدِي  
مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ» . وَتَظْهَرُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ بِإِنْتِظَامٍ  
فِي أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ . كَمَا تَظْهَرُ مِنْ حِينَ لَأَخَّرَ فِكْرَةَ  
أَسَاسِيَّةً فِي الْإِسْلَامِ هِيَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ لَا تَنْجِي  
دُونَ الْإِيمَانِ صَاحِبِهَا .

أَمَّا أَسْلُوبُ هَذِهِ النُّصُوصِ فَلَيْسَ مِنْ الْيَسِيرِ ضَبْطُهُ .  
وَفِي الْجُمْلَةِ إِنَّ الْآيَاتِ تَمِيلُ إِلَى الطُّولِ وَالتَّمَدُّدِ وَإِلَى فَقْدَانِ  
إِقْتَاعِهَا . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْعُثُورَ عَلَى آيَاتِ تَحْتَوِي عَلَى حَوَالِي  
عِشْرِينَ مَقْطَعًا لَمْ يَكُنْ نَادِرًا بِالْمَرَّةِ وَيَبْقَى ذَا تَأْنِيْسٍ جَمِيدٍ  
عَمِيقٍ . وَإِذَا قَارَنَّا لُغَةَ هَذِهِ النُّصُوصِ بِلُغَةِ نُّصُوصِ الْفَتْرَةِ  
الثَّانِيَةِ وَجَدْنَاهَا أَقْلَ إِبْجَازًا وَغُمُوضًا وَأَقْلَ احْتِوَاءً لِلْإِشَارَاتِ  
وَالْتَلْمِيحَاتِ . وَتَكْشِفُ اللُّغَةُ عَنْ بَعْضِ الْحَقَائِقِ الْهَامَةِ .  
فَأَحَدُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَهُوَ «الرَّحِيمُ» زَالَ اسْتِعْمَالُهُ وَعَوُضَ مِنْ  
الآنَ فَصَاعِدًا بِكَلِمَةِ «اللَّهُ» وَبَقِيَّتِ الْأَسْمَاءُ الْمُزْدَوِجَةُ هِيَ  
الْقَاعِدَةُ مِثْلَمَا هُوَ الشَّانُ فِي نُّصُوصِ الْفَتْرَةِ السَّابِقَةِ . إِلَّا أَنَّ  
بَعْضَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمُزْدَوِجَةِ يُسْتَعْمَلُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ .  
فَيَتَكَرَّرُ مِثْلًا إِسْمُ «الْعَفُورِ الرَّحِيمِ» وَيُعَرَّفُ الْوَحْيُ الْقُرْآنِيُّ  
بِأَسْمَاءٍ جَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ قَبِيلِ «الْفُرْقَانِ» (7)

(7) ورد هذا اللفظ في الآية : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » البقرة 53  
وفي الآية : « وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَذَا لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » آل عمران/ 4 .  
وورد كثيرا في غير هاتين الآيتين .

و«البلاغ» (8) وفَرَضَتْ بَعْضُ التَّرَاكِيِبِ الْجَاهِزَةِ نَفْسَهَا مِثْلَ «فِي شَكِّ مُرِيْبٍ» (9) و«ضَلَالٍ بَعِيدٍ» (10) و«يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ» (11). يُؤَكِّدُ هَذَا التَّكَرَّارُ بوضوحٍ دَوْرَ بَعْضِ المَوَاضِيْعِ الخَطَابِيَّةِ ، وَهُوَ دَوْرٌ يَضْمَنُ خَاصَّةً لِّلآيَةِ الَّتِي فَقَدَتْ لِقَاعَهَا «وَقَفًا» تَشْعُرُ بِهِ الأُذُنُ شُعُورًا كَبِيرًا . وَتَكْفُفُ الفَوَاصِلُ فِي هَذِهِ السُّورِ عَنْ فَقْدَانِ تَنَوُّعِهَا . وَتَنْجَحُ نِهَآيَاتُ الآيَاتِ بِفَضْلِ اسْتِعْمَالِ الصِّفَاتِ الْمُزْدَوِجَةِ أَوْ التَّرَاكِيِبِ الْمُعَادَةِ مِنْ النُّوعِ الَّذِي كُنَّا بَصَدَدِ ذِكْرِهِ فِي اسْتِرْجَاعِ جَهْوَرِيَّةٍ أَوْ دَوِيٍّ تَنْشُدُهُ الأُذُنُ لَا سِيَّمَا أَنَّ الآيَةَ زَادَ طَوْلُهَا وَتَمَدَّدَتْهَا .

وَتَتَكَوَّنُ نَصُوصُ الفَتْرَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ السُّورِ التَّالِيَةِ :

البقرة (2) البينة (98) التغابن (64) الجمعة (62) الأنفال (8) محمد (47)  
آل عمران (3) الصف (61) الحديد (57) النساء (4) الطلاق (65) الحشر (59)  
الأحزاب (33) المنافقون (63) النور (24) المجادلة (58) الحج (22) الفتح (48)  
التحريم (66) الممتحنة (60) النصر (110) الحجرات (49) التوبة (9) المائدة (5).

وَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ (ص) طَبِيلَةَ أَعْوَامِ الرِّسَالَةِ الثَّمَانِيَّةِ أَوْ العَشْرَةِ بِمَكَّةَ مُجَرَّدَ قَائِدِ رُوحِيٍّ لَطَائِفَةٍ مَكُونَةٍ فِي مُعْظَمِهَا مِنْ ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَهِيَ طَائِفَةٌ غَارِقَةٌ فِي وَسْطِ مِلْؤُهُ الإِشْرَاقُ وَيَأْتِيَسَةُ مِنْ كُلِّ أَمَلٍ فِي الإِنْتِشَارِ . فَعَمَلٌ

(8) ورد لفظ البلاغ في آيات نذكر منها : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » إبراهيم/52 .

(9) جاء في سورة هود/62 قوله تعالى : « وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب » .

(10) وجاء في سورة إبراهيم/3 قوله : « أولئك في ضلال بعيد » وجاء في سورة سبأ/8 قوله : بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » .

(11) وردت هذه العبارة في آيات كثيرة نذكر منها : « قل إن الله يفضل من يشاء ويهدي إليه من أناب » الرعد/27 « فيفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » إبراهيم/4 .

مُؤَسَّسِ الْإِسْلَامِ كَانَ مُنْهَضًا إِذْنُ فِي دَعْوَةٍ كَانَتْ وَسِيلَتُهَا  
الْوَحِيدَةُ الْإِقْنَاعَ .

وَابْتَدَأَ مِنَ الْهَجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَنَةَ 622م  
سَيِّغِيرُ كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاةِ مُحَمَّدٍ . فَقَدْ تَضَخَّمَ فَجَاءَهُ  
عَدَدُ « الْمُهَاجِرِينَ » الْمَكِّيِّينَ الْقَلِيلُ بِدُخُولِ عَرَبٍ مِنَ  
الْمَدِينَةِ فِي دِينِ اللَّهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ « الْأَنْصَارُ » . وَلَمْ يَعُدَّ  
مُحَمَّدٌ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا رَسُولًا يَصْدَعُ فِي الصَّبَمِ الْبُكْمِ الَّذِينَ  
لَا يَعْقِلُونَ . فَقَدْ أَصْبَحَ قَائِدَ أُمَّةٍ تَسْتَمِدُّ تَعَالِيمَهَا مِنَ اللَّهِ .  
وَهِيَ أُمَّةٌ قُوَّتُهَا وَشَجَاعَتُهَا وَهَيْبَتُهَا فِي تَزَايُدٍ مُسْتَمِرٍّ إِلَى  
وَفَاةِ الرَّسُولِ سَنَةَ 632م .

وَكُلُّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ يُقْضَى بِمَشِيئَةِ اللَّهِ أَيْ  
بِوَاسِطَةِ الْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ الرَّسُولُ قَائِدُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ثُمَّ  
يَبْلُغُهُ . وَهَكَذَا تُكُونُ السُّورُ الْمَدَنِيَّةُ — عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ —  
مَرْجِعَنَا الْأَسَاسِيَّ فِي دَرَاةِ تَارِيخِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ . وَهُوَ تَارِيخُ  
جِدِّ هَامٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ . وَتَجِدُ فِيهَا مِنْ  
جَدِيدِ صَدَى الْمَعَارِكِ الَّتِي نَاصَرَ فِيهَا مُحَمَّدٌ [أَصْحَابُهُ] ضِدَّ  
طَوَائِفِ الْمَدِينَةِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَضِدَّ حِزْبِ « الْمُنَافِقِينَ »  
(هَكَذَا سُمُّوا مِنْ أَجْلِ الرِّيْبَةِ الَّتِي يُوحِي بِهَا إِيْمَانُهُمْ) وَضِدَّ  
مُشْرِكِي مَكَّةَ وَأَخِيرًا ضِدَّ الْقَبَائِلِ الْبَدَوِيَّةِ الَّتِي اعْتَنَقَتْ  
الْإِسْلَامَ الْمُنْتَصِرَ لَا اقْتِنَاعًا وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ مَصَالِحِهَا .

وَالِى جَانِبِ هَذِهِ الْخَلَائِفَاتِ الَّتِي جَعَلَتْ الرَّسُولَ فِي مُوَاجَهَةٍ  
مَعَ أَعْدَاءِ مِنَ الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ تَسْوِيَةٌ جُمْلَةً  
مِنْ الْمَشَاكِلِ هَامَةٌ كَانَتْ أَوْ ثَانَوِيَّةٌ وَهِيَ مَشَاكِلُ غَالِبًا مَا تَكُونُ

حَسَّاسَةً وَتَتَطَلَّبُ حَلًّا سَرِيعًا . وَلِهَذَا الْمَشَاكِلُ مَسَّاسٌ بِتَنْظِيمِ  
الْأُمَّةِ الدَّاخِلِيِّ وَبِقَانُونِ أَعْضَائِهَا الْوَضْعِيِّ . وَالنَّتِيجَةُ هِيَ أَنَّ  
سَنَجِدُ فِي السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ نُصُوصًا ذَاتَ قِيَمَةٍ كَبِيرَةٍ الْقَصْدُ  
مِنْهَا إِقَامَةُ [أَرْكَانِ] الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُسْتَقْبَلًا . فَبَعْضُ  
هَذِهِ السُّورِ يَتَعَلَّقُ مِثْلًا بِصِلَةِ الدِّينِ الْفَتَنِيِّ بِالْأَدْيَانِ التَّوْحِيدِيَّةِ  
الْأُخْرَى وَبَعْضُهَا الْآخَرُ يَكُونُ عُنَاصِرَ الْقَانُونِ الْمَدَنِيِّ أَوْ الْجِنَائِيِّ  
الْأَسَاسِيَّةِ فِي مَادَّةِ الزَّوَاجِ وَالطَّلَاقِ وَالْمِيرَاثِ وَالْمُعَامَلَاتِ  
وَالزَّجْرِ الْخ ...

وَلَمْ تَرْتَبْ - فِي الْمُصْحَفِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا - هَذِهِ  
النُّصُوصُ الَّتِي فَرَضَتْهَا الْأَحْدَاثُ تَرْتِيبًا يَسْمَحُ لَنَا بِإِعَادَةِ  
إِنْشَاءِ سِلْسِلَةِ الْأَحْدَاثِ الزَّمْنِيَّةِ . وَلَكَيْتَ السُّورُ الْمَدَنِيَّةُ  
سَوَى سَجِلٍ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ فِيمَا بَيْنَ سَنَتَيْ 622 و 632 م . وَكَذَلِكَ  
نُصُوصُ التَّشْرِيعِ وَالْعِبَادَاتِ فَهِيَ تَكُونُ نَوَاطِفَ قَانُونٍ أُولَى  
وَلَكِنَّهَا لَا تُمَثَّلُ قَانُونًا بِالْمَعْنَى الصَّحِيحِ . وَإِنَّ عَدَدًا عَدِيدًا  
مِنَ الْمَوَاضِيعِ يَتَسَرَّبُ إِلَى هَذِهِ النُّصُوصِ فَتَعُودُ الْمَسَائِلُ  
الْمَعْرُوفَةُ فِي سُورِ الْفَتْرَةِ الْآخِيرَةِ الْمَكِّيَّةِ وَذَلِكَ بِإِفَاضَةِ  
الْحَدِيثِ فِيهَا أَوْ بِتَدْقِيقِهَا . فَيَعُودُ تَأْكِيدُ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ  
وِإِدَانَةِ الشَّرْكِ وَتَوْضِيحُ وَاجِبَاتِ الْمُؤْمِنِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالتَّذْكِيرُ  
بِدَعَوَاتِ الرِّسْلِ الْمُتَقَدِّمِينَ - وَلَكَيْنَ لَهَا سَمِيعٌ - وَالتَّذْكِيرُ  
بِيسَومِ الْحِسَابِ الْآخِيرِ وَبِأَنَّ الثَّوَابَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ . وَتَنْضَافُ  
إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِيعِ مَسَائِلُ أُخْرَى أَوْحَتْهَا الْأَحْدَاثُ الْجَدِيدَةُ .  
مِنْ ذَلِكَ نَصْرُ اللَّهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْقَاتَ الضِّيقِ . كَمَا  
تَغَيَّرَتْ بَعْضُ الْمَسَائِلِ الْآخِرَى ، فَإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ النَّبِيُّ الَّذِي  
لَا يَخْتَلِفُ عَنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ لَمْ يَعُدْ

يَظْهَرُ كَمُؤَسَّسِ الْحَنِيفِيَّةِ النَّبِيِّ كَانَتْ مَكَّةُ مَرْكَزَهَا الدِّينِيِّ . وَلَكِنَّ بَقِيَّ مُحَمَّدٌ (ص) «بَشِيرًا» وَ«نَذِيرًا» فَإِنَّهُ بَرَزَ كَذَلِكَ كَقَائِدِ أُمَّةٍ بِالْخُصُوصِ . [وَالْآيَةُ] «أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ» هِيَ الصِّغَةُ الْمَأْلُوفَةُ الَّتِي تَلْخُصُ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْأَحْدَاثِ .

وَإِنَّ الرَّغْبَةَ الْمُلِحَّةَ فِي تَأْرِخِ الْأَحْدَاثِ وَتَعْيِينِ ظُرُوفِهَا وَإِمَاطَةِ اللَّثَامِ عَنِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي أَوْحَتْ بِالْخُطُوطِ التَّلْمِيحِيَّةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا السُّورُ كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَرَجِّمِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ الْمُسْلِمِينَ رَغْبَةً لَا مَحِيصَ عَنْهَا . فَهَلْ وَفَّقُوا فِي ذَلِكَ أَحْسَنَ مِمَّا وَفَّقُوا فِي [مُحَاوَلَةِ] تَأْرِخِ أَحْدَاثِ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ ؟ لَمْ تَعُدْ الْأَحْدَاثُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأُمَّةِ بِأَسْرَهَا فِي الْمَدِينَةِ هِيَ الَّتِي تَشْغَلُ وَحْدَهَا بِأَلِ «الْمُهَاجِرِينَ» وَ«الْأَنْصَارِ» . فَأَحْدَاثُ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ جَمِيعُهَا وَأَقْوَالُ الرَّسُولِ وَأَفْعَالُهُ — وَالرَّسُولُ قَائِدُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَدَلِيلُهُمْ وَأَسْوَتُهُمْ — هِيَ أَيْضًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَدَيِّنِينَ ذَاتُ فَوَائِدَ وَمَعَانٍ . وَقَدْ تَنَوَّقَلْتُ سَمَاعًا مُبَاشَرَةً بَعْدَ مَوْتِ مُحَمَّدٍ وَحَتَّى فِي سِنِّي حَيَاتِهِ بَعْضُ الْمُعْطِيَّاتِ الصَّالِحَةِ لِتَوْضِيحِ الْخُطُوطِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا النُّصُوصُ الْمَدَنِيَّةُ .

وَالْتَّلْمِيحُ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ وَاضِحٌ وَالْإِسْتِثْنَاءُ لَا يُنَازَعُ فِيهِ . وَغَالِبًا مَا تَبَقَّى الْفِكْرَةُ مُبْهِمَةٌ . وَجَاءَ التَّفْسِيرُ يُوَضِّحُ بِوَاسِطَةِ عُرُوضٍ تَارِيخِيَّةٍ لَهَا مَسَاسٌ بِالسِّيَرَةِ كُلِّ مَا سَكَتَ الْقُرْآنُ عَنْ إِبَانَتِهِ .

إِلَّا أَنَّ التَّلْمِيحَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُهَا السُّورُ الْمَدَنِيَّةُ وَالْمُعْطِيَّاتِ التَّفْسِيرِيَّةُ تَوْجَدُ عَلَى مُسْتَوَيَيْنِ يَخْتَلِفَانِ إِلَى

حَدَّ النَّضَادَ . الْأُولَى أُرِيدَ بِهَا الْهِدَايَةُ - مَحْضُ الْهِدَايَةِ . فَهِيَ لَا تَذْكُرُ الْأَحْدَاثَ إِلَّا لِتَصِلَهَا بِعِلَّةٍ عَلِيًّا هِيَ اللَّهُ مَا نَحْ نُصَرِّهِ لِمَنْ هُوَ لَهُ أَهْلٌ بِفَضْلِ إِيْمَانِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَصَبْرِهِ وَطَاعَتِهِ الرَّسُولَ . وَلَا يُعْطَى الْحَدَّثُ فِي حَدِّ ذَاتِهِ أَيَّ قِيَمَةٍ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ الْجَزْئِيَّةُ الَّتِي أُرِيدَ بِهَا التَّصْوِيرُ . وَالْفِكْرَةُ الْغَالِبَةُ هِيَ التَّذْكِيرُ وَالتَّحْذِيرُ وَإِنْ ذَارُ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ . وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ جَاءَتِ الثَّانِيَّةُ [أَيِ الْمَعْطِيَاتُ التَّفْسِيرِيَّةُ] مُدْأَفَةً عَنِ الدِّينِ وَقَدْ أُوحِتْ بِهَا الرَّغْبَةُ فِي اسْتِكْنَاهِ الْخَفِيِّ وَالْخَوْفُ مِنَ النِّقْصِ وَالظُّلُمَاتِ وَالْمَيْلُ إِلَى تَرْتِيبِ الْأَحْدَاثِ حَسَبَ تَرَابُطِ لِلْأَفْكَارِ مُتَوَاصِلٍ وَتَسْلُسُلٍ تَارِيخِيٍّ لَا يَقْبَلُ الطَّعْنَ كَمَا أُوحِيَ بِهَا الْمَيْلُ إِلَى الْإِفَاضَةِ فِي الْقَوْلِ إِفَاضَةً مُغْرِبَةً تُؤَثِّرُ فِي « الْخِيَالِ وَالْقَلْبِ » . وَمِنْ ثَمَّ وَرُودُ خَاتِمَةٍ فَرَضَتْ نَفْسَهَا وَهِيَ نَفْسُ الْخَاتِمَةِ الَّتِي انْتَهَتْ بِهَا النُّصُوصُ الْمَكِّيَّةُ أَوْ تَكَادُ . وَرَغْمَ الْإِمْكَانِيَّاتِ الَّتِي يُوقِّرُهَا لَنَا التَّفْسِيرُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَرْتِيبِ النُّصُوصِ تَرْتِيبًا تَارِيخِيًّا دَقِيقًا وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِكْتِفَاءِ بِتَرْتِيبِ يَأْخُذُ بَعِيْنِ الْإِعْتِبَارِ بَعْضَ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ مِثْلَ انْتِصَارِ [الْمُسْلِمِينَ] فِي بَدْرٍ وَإِخْفَاقِهِمْ فِي أُحُدٍ وَغَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَالْحَجَّ سَنَةَ 629م وَفَتْحَ مَكَّةَ سَنَةَ 630م وَغَزْوَةَ تَبُوكَ .

تَخْتَلَفُ سُورُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْأَرْبَعُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ حَيْثُ الطُّولُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا . وَإِذَا اسْتَشْنَيْنَا أَقْصَرَهَا نَلَا حَظَّ أَنَّهَا تَتَكَوَّنُ جَمِيعًا مِنْ نُّصُوصٍ جِدُّ قَصِيرَةٍ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ وَمُتَعَجَّازَةٍ أَوْ يَشْدُ بَعْضُهَا بَعْضًا شَدًّا وَثِيقًا أَوْ يَكَادُ . وَتَعُثِّرُ أحيانًا فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَاتِ هُنَا وَهَنَاكَ عَلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِكَثِيرٍ .



وَالسُّورُ الْمَدَنِيَّةُ الَّتِي لَهَا شَيْءٌ مِّنَ الطُّوْلِ تُسَاعِدُ بِسَهولَةٍ فِي هَيْئَتِهَا تِلْكَ عَلَى بُرُوزِ الْعُنْصُرِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي تَبَلُّورِ النُّصُوصِ الْمُتَمَيِّزَةِ فِيهِ الْأَصْلُ . وَيَتَنَحَّصِرُ هَذَا الْعُنْصُرُ أحيانًا فِي لَفْظٍ أَوْ أَكْثَرَ تَنْتَمِي كُلُّهَا إِلَى نَفْسِ الْأَصْلِ . إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرًا مَا تَتَمَحَوَّرُ النُّصُوصُ حَوْلَ قَضِيَّةٍ رَّئِيسِيَّةٍ كَالزَّوْاجِ أَوْ الطَّلَاقِ أَوْ الْعُقُودِ أَوْ الْجِنَهَادِ أَوْ التَّدَابِيرِ الَّتِي يَدْفَعُ إِلَى اتِّخَاذِهَا حَدَثٌ مِّنَ الْأَحْدَاثِ مِثْلَ هَزِيمَةِ أَحُدٍ (12) .

وَلَقَدْ غَالَى الْمُسْتَشْرِقُونَ فِي الْإِذْعَانِ إِلَى نَزْعَةِ التَّفْريْقِ تَفْريْقًا كَامِلًا مِّنْ حَيْثُ الشَّكْلُ بَيْنَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ وَالسُّورِ الْمَدَنِيَّةِ . وَأَنَّنَا انْتَقَلْنَا فِي الْوَاقِعِ عَنْ طَرِيقِ الْمَرَّاحِلِ مِّنْ سُورِ الْفِتْرَةِ الثَّالِثَةِ الْمَكِّيَّةِ ذَاتِ الشَّكْلِ الْخَطَابِيِّ إِلَى السُّورِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْعُنَاوَاتِ الْمُجْمَعَةِ بِالْمَدِينَةِ . وَمِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى يَمِيلُ الْمَرْءُ - وَهَذَا سَهْلٌ - إِثْبَاتُهُ - إِلَى أَلَّا يَرَى فِي السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ إِلَّا الْعُنَاوَاتِ ذَاتِ الْمَدَى الْعَمَاسِيِّ أَوْ التَّشْرِيعِيِّ وَفِي الْوَاقِعِ إِنَّ الْفَقَرَاتِ الْخَطَابِيَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كَثِيرَةٌ وَإِنْ تَحْدِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَذَمُّ الْمُتَافِقِينَ أَوْ قَوْمِ إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَا يَقِلُّ قُوَّةٌ وَلَا شِدَّةٌ عَمَّا ذَجِدُهُ فِي نُّصُوصِ الْفِتْرَةِ الثَّالِثَةِ الْمَكِّيَّةِ . وَأَكْثَرُ مِمَّنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ تَحْتَ تَأْثِيرِ الظُّرُوفِ الْجَدِيدَةِ وَلَعَلَّهُ مِمَّنْ أَجَلَ تَمَكُّنِ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ أَدْعِيَةٍ كَثِيرَةٍ يَقْرَأُونَهَا جَمَاعَاتٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ نَعْشُرُ هُنَا وَهُنَاكَ فِي السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ عَلَى تَسَابِيحٍ فِيهَا مِمَّنْ الْمَوْسِيقَى وَمِمَّنْ تَسَاغُمِ الْأَسْلُوبِ مَا فِي غَيْرِهَا مِمَّنْ نُّصُوصِ الْقُرْآنِ . وَإِذَا أَرَدْنَا

(12) فِي شَأْنِ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحُدٍ، أَنْظَرْ مَقَالَنَا: مُحَمَّدُ الْمُخْتَارُ الْعِيْدِي: عِلَاقَةُ الْمَغَازِي بِالسَّيْرِ حَوْلِيَّاتِ الْجَامِعَةِ التُّونِسِيَّةِ الْعِدَدُ 17 - تُونِسُ 1979 .

بِكُلِّ الْوَسَائِلِ فَصَلَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُمَيِّزُ السُّورَ الْمَدَنِيَّةَ عَنِ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ نُلَاحِظُ أَنَّ الْإِخْتِلَافَ لَيْسَ قَائِمًا إِلَّا عَلَى الْمَوَاضِيْعِ الْعَدِيْدَةِ ذَاتِ الطَّابِعِ التَّشْرِيْعِيِّ أَوْ الْعَمَلِيِّ الَّتِي أَوْحَتْ بِهَا الظُّرُوفُ الْجَدِيْدَةُ .

وَعَرِيبٌ جَدًّا شَكْلُهُ هَذِهِ الْآيَاتُ . فَلَايَةُ (13) الْقُرْآنِيَّةُ وَقَدْ أُمْسَتْ بَعْدُ جَدُّ قَصِيْرَةٍ عُمُومًا تُؤَكِّدُ دَوْرَهَا الْإِيْجَازِيَّ وَتُؤَكِّدُ إِيْخْتِصَارَهَا . وَبَرَزَتْ مِنْ جَدِيدٍ بَعْضُ التَّرَاكِيْبِ الْمَعَادَةِ الْغَرِيْبَةِ . كَمَا كَثُرَ التَّكْرَارُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ بِتَحْدِيدِ الْحَالَاتِ الْخَاصَّةِ وَظَبْطِهَا وَتَوْضِيْحِ حُكْمِ سَابِقٍ . أَمَّا الْآيَاتُ وَقَدْ تَخَلَّتْ عَنْ إِيْقَاعِهَا تَمَامًا فَتَأْنِي عُمُومًا فِي أَرْبَعَةِ أَسْطُرٍ أَوْ خَمْسَةِ وَيُمْكِنُ لِلآيَاتِ أحيانًا أَنْ تَطُولَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أَفَلَا تُوحِيْ أَبَدًا هَذِهِ النُّصُوصُ التَّشْرِيْعِيَّةُ بِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَدَّثَ فِيْهِ مُعَاَصِرُو مُحَمَّدٍ فِيْ مَجَالِ سِيْهِمُ الْمَأْلُوفَةِ ؟ هَذَا الْأَمْرُ جَدُّ مُمَكِّنٌ إِلَّا أَنْ الْبَرْهَنَةَ عَلَيْهِ مِنْ الصَّعُوبَةِ بِمَكَانٍ . وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فَالْقُرْآنُ يُقَدِّمُ لَنَا فِي هَذَا الصَّدَدِ أَقْدَمَ نَمَازِجِ اللُّغَةِ التَّشْرِيْعِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِ .

وَبِالْتَفْصِيْلِ [نَقُولُ] إِنَّ السُّورَ الْمَدَنِيَّةَ تَحْمِلُ بَعْضَ السَّمَاتِ الْخَاصَّةِ النَّاتِجَةِ عَنْ الظُّرُوفِ الْجَدِيْدَةِ الَّتِي كَانَ مُحَمَّدٌ يَعْيشُهَا . فَفِعْلُ الْأَمْرِ قُلْ ! وَقَدْ كَثُرَ تَوَاتُرُهُ إِبْتِدَاءً مِنْ الْفِتْرَةِ الْآخِيْرَةِ بِمَكَّةَ تَزَايَدَ اسْتِعْمَالُهُ . وَهُوَ يَظْهَرُ فِيْ أَحيانٍ كَثِيْرَةٍ بِمُوجِبِ حِوَارٍ بَاطِنِيٍّ يُمَلِّي اللّهُ جَوَابَهُ . وَكَشِيْرًا

(13) وردت في النص الفرنسي عبارة phrase coranique وورد في غير هذا الموضع من نفس الدراسة عبارة verset coranique . فكان بلاشير يراوح بين العبارتين وقد أعرضنا عن الأولى لأننا نعتبر « الجملة » من خصائص النص العادي .

أَيْضًا مَا يَلْتَمِسُ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنْفُسِهِمْ حَلًّا لِمُعْضَلَةٍ أَوْ شَرَحَ  
جُزْئِيَّةً تَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَةِ فَيَسْأَلُ مُحَمَّدٌ وَقَدْ أَعْتَبِرَ كَالْمُفْتِي  
الَّذِي يَقْدِفُ اللَّهُ [فِي قَلْبِهِ] نُورَهُ .

وَأَنَّ النَّدَاءَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ الْقُرْآنُ فِي سُورِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ  
لِإِزَاءِ الَّذِينَ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِالْخُطَابِ لَا يَخْلُو مِنْ مَعْنَى . فَالْعِبَارَةُ  
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ » تَتْرُكُ مَكَانَهَا لِعِبَارَاتٍ أُخْرَى أَكْثَرَ دَقَّةً  
أَوْ أَشَدَّ تَنْوَعًا مِنْ قَبِيلِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » و« يَا أَهْلَ  
الْكِتَابِ ! » . وَحِينَئِذٍ يُسَمَّى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْهَيْئَةِ مُتَعَدِّدَةً لَا  
مُشْرَكِينَ فَقَطْ بَلْ وَكَذَلِكَ « الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » وَإِنَّ التَّوْرِيَّةَ  
تَسْتَلْزِمُ بِالطَّبَعِ إِنْظَارَ اعْتِنَاقِهِمْ [الْإِسْلَامَ] . وَمَا دَامَ مُحَمَّدٌ  
(ص) يَأْمَلُ دَوْمًا فِي جُلُبِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ إِلَى نَوْعٍ مِنَ التَّوْفِيقِيَّةِ  
الْمُسَمَّاةِ حَنَيفِيَّةً فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُسَمِّيهِمْ « بَنُو إِسْرَائِيلَ » .  
وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تُطْلَقُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي النُّصُوصِ الَّتِي  
تُسَجَّلُ زَيْفَ هَذَا الْأَمَلِ عِبَارَةٌ : « الَّذِينَ يَدِينُونَ  
بِالْيَهُودِيَّةِ » (14) .

وَيُظْهِرُ مِنْ جَدِيدٍ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ التَّعَابِيرِ أَوْ الصِّيَغِ  
الْجَدِيدَةِ مُبْعَدَةً جُلَّ التَّعَابِيرِ وَالصِّيَغِ الَّتِي تَوَاتَرَتْ ذِكْرُهَا  
فِي سُورِ الْفَتْرَةِ السَّالِفَةِ . نَذَكُرُ مِنْهَا التَّرَاكِيِبَ الْمَعَادَةَ  
التَّالِيَةَ : « الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أَوْ « أَطِيعُوا اللَّهَ  
وَالرَّسُولَ » .

وَفِي مَيْدَانِ اللُّغَةِ الصَّرْفِ [نَرَى] أَنَّ النُّصُوصَ الْمُنَزَّلَةَ الَّتِي  
تَهْمُنَا تَدُلُّ عَلَى تَكْيِيفٍ مَعَ الْبَيْئَةِ الْمَدَنِيَّةِ . كَمَا تَجَدُّرُ

(14) جاء في النص الفرنسي العبارة التالية : Ceux qui pratiquent le judaïsme وليس في القرآن ما يساوي بالضبط هذه العبارة فلم نعتبرها آية .

الإشارة إلى وجود بعض الصفات المزدوجة كأسماء لله في  
 السور المدنية ، إلا أنها قليلة الاستعمال عموماً . وإن  
 التأشير الذي تحدثه هذه الأوصاف المزدوجة [في النفوس]  
 هو نفسه الذي نجد في السور المكينة السابقة وهي تغلق  
 الآية بحركة مدّ طويلة مجهورة وضرورية أحياناً عندما  
 تفقد الآية إيقاعها .